نافذة

الضمير المفقود

معلومٌ، يتداوله البشرٍ، ينشئون حوله الأسئلة، مستيقظ نائم، غائب حاضر، حيٌ ميت، نبحث عنه في داخلنا، ضمن مجتمعنا، ونتجه إلى إنشاء سؤال: هل هناك من مسؤول عنه وعن تعزيز أو فرط عقده ووجوده؟ وقبل هذا نسأل عن ضمير الأمة وأهمية مقوماتها وأركانها الخمسة؛ اللغة والثقافة والأرض والتاريخ والأيديولوجيا، المنتشرة بين أفرادها، دينية أو فكرة متبناة، وعن الإيمان في هذا أو تلك، وأضيف إليها السنن التي يجب ألا يحيد المنتمون إليها عنها، وتكون بالانتماء والأداء والولاء، فهل نعتبر أن أول مقوم وقبل كل هذا يكون الضمير الذي إن لم يحمله أفرادها تكن لا أمة.

نخرج من هذا ونقول: هل هو الله الرب المعتقد الديني، الأخلاق، المؤنّب أو المؤرق، أو المحاسب الذاتي، الذي يجري معنا الحوار المطور لوجودنا أو لتدميرنا، من دون أن يسمعنا أحد؟ كيف يلد في الفكر ويسكن الجوهر ويكون شريكاً أزلياً في اتخاذ القرارات الخيرة؟ أي إنه إن ظهر على الإنسان من ذاته، أشار إليه الجميع بالبنان.

أتوقف هنيهةً لأقول: إذاً من المسؤول عن ارتكاب الخطيئة، الجنح والجرائم؟ هل هو المسؤول عن ردع كل ذلك وضبط الحركة الشريرة ومحاورتها؟ لأن دوره تهذيب الذات وشكمها لمصلحة الخير، من باب أنه يمثل أعلى سلطة تحكم العقل، وتوجهه نحو الأفعال الإنسانية، إلا أن سلطة الإغواء والإغراء والشهوات المادية والجنسية تسعى جاهدة لضرب هذا التحكم، فإن تمكنت من ذلك قادته إلى الانحدار وإفساد الذات التي تنشئ في الجوهر صراعاً دائماً، نستطيع أن نطلق عليه صراع الضمير مع أدوات الشر ومساراته.

كلما اتسع العقل اتسع الكون، هل يعني الكون الضمير؟ الضمير لا يجاري العقل، العقل منفلت يحتاج إلى ضوابط، الضوابط يحكمها من؟ الضمير؟ إذاً كيف يكون الانفلات؟ ومنه أجد ما اختلف عليه الفلاسفة ومنهم نيتشه الذي ناقش مسألة الضمير، وفرويد القائل كلما تحكم المرء بعدوانيته اشتدت الميول للقيام بأفعالها، وأنا أقول: إن الضمير ظهر نقياً مع حضور الإنسان الأول المتأمل والباحث والمبدع لكامل نظم الحياة، وضع أسسها، وانتمى بعدها إلى الفكر اللاهوتي والكهنوتي بتنوعاته الدينية المقدسة التي تداخلت مع البشر، وأكثر من ذلك أعتبره ناظماً له ومسؤولاً عن قيادة النوازع الإنسانية الخيرة، ويتجلى ذلك بقوة حضوره مع تحول الإنسان إلى مادي، فوقف له بالمرصاد، بعد أن أخذت شراهته تتزايد بسرعة هائلة، مفسدة الكثير من ذاك البنيان الأخلاقي، وأشير طبعاً إلى الضمير الذي أخذ على عاتقه دائماً الهجوم على ظاهرة الفساد والمفسدين ومرتكبي الخطيئة، بدءاً من الذات، وهنا نراه متوافقاً مع المقدسات إلى حد ما، التي وعدت بالعذابات والإذلال في الحيوات الدنيوية والثانوية والأخروية، وصولاً إلى الآخرة، وأيضاً مع غير المقدس من الأفكار، رغم أنّ لديها مؤمنين بها، فكان بذلك حارساً أميناً وحافظاً رئيساً لاستمرار الحياة، وأهمها جنسنا البشري الذي دخل عليها، وأخذ يعبث بموجوداتها.

هل يموت الضمير؟ مؤكد لا.. على الرغم من استخداماته الشائعة، يفقده المرء التائه عن الصح والغارق في الخطيئة، هل هناك من ضمير معافى وآخر مريض؟ هل هو الله المسكون في الجوهر؟ أو صوته الحرّ المحب الذي يحاورنا مع كل قرار وحركة وسكون نريد اتخاذه أو إجراءه؟ هل استطاع الضمير بعد كل هذا إيقاف أو لجم الشهوات ليس إلى مباهج الحياة، بل إلى شرورها؟ هل قدر على وقف العنف أو القتل أو منع الحروب أو الجشع أم إنه يريد استمرار كل ذلك من أجل تفوقه عليها؟ وهل الذي يقتل أو يسرق أو يغتصب متجرد عن الضمير؟ وبعد أن يرتكب كل ذلك أو بعضاً منه يظهر الندم الذي يطالب بالغفران والاستعداد بالاعتراف بما تمّ ارتكابه، هل يكفي هذا للعودة إلى حياة طبيعية إنسانية؟

أين ضميرك صديقي؟ ونشير إلى أن هذا أو ذاك بلا ضمير، والضمير ذكر، ولا نخاطب النساء به، بل نسأل: ماذا تضمر في نفسك؟ فالذي تضمره تنبئ عنه تصرفاتك، ويصعب على الآخر الوقوف عليه، إلى أن يكتمل مشهدك، هنا يكون الضمير حالة فردية مثله مثل الطعام والشراب والجنس، فإذا عممنا كان المجتمع في حالة ضعف، وانتشرت معه الضغائن والفتن.

هل يمكننا وصف الخارجين من دين إلى دين بالكفرة والمارقين؟ أليس الآخر ديناً ولديه المؤمنون به؟ وكذلك المؤمنون بالعلمانية أو بأي فكرة حداثوية، وأعمالهم كانت حسنة، وأخلاقهم حميدة، هل نعدّهم بلا ضمير وملحدين؟ وإذا كان الله يسكن جميع الأحياء وكل الأديان السماوية والوضعية القديمة منها والمستحدثة، وأول من آمن به، أدركت أنه موزع فيما بينها، ما يشير إلى أنّ الله حاضر في أحيائه قبل وأثناء وبعد الأديان، وأيضاً قبل ومع وبعد الرسل، وهو الذي تدركه البصائر ولا تدركه الأبصار، إلا من خلال المحسوسات السبع؛ الحواس الخمس المادية، إضافة إلى حاستي العاقلة والناطقة اللاماديتين المختصتين بالضمير الذي يهرب من حامله عندما تظهر الرغبات العنيفة، وتحول إنسانها إلى عبد لها، ما يسمح دونه السقوط في بحر الرغبات الفاتنة، ورويداً نراه ينتهي، بينما يكون الضمير متابعاً لسقوطه، وهنا تحضر مهام الفكر الإنقاذي المهم، الذي يقوم بدور المسؤول سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً، لا دينياً في إيقاظ الضمير، لأن الضمير لا يموت، وهو الحارس الأول والأخير في حياة المجتمعات، وأسٌ مهمٌ في تنظيمها ورسم صورتها الأخلاقية والإنسانية وإحلال صنوف السعادة فيما بينها.

الضمير موجود أزلي كما هو الشرُّ أزلي، صراع مستمر يسكن العقل الإنساني، يتصارع ضمنه البشر، يبحثون فيه عن المنتصر، برأيكم من ينتصر؟ المنتصر ينتشي، والمنهزم يستدعي ضميره، يحاوره عن أسباب الانكسار.

كيف بنا نصل إلى هذه القناعة التي نفردها على مائدة الفكر من دون نوازع إلى الاختلاف، التي في حينها ندعوها إعادة إعمار الإنسان؟ لأننا تعلمنا عندما يغفو الضمير تثور الأحقاد في العقول، وتتعطل القيم، وتفقد حواسها، فتنشأ الأزمات، لذلك كان وجوده في العقل والقلب يعادل الروح، والفرق بينهما أنه يضعف ويقوي، يغيب ويحضر، فهو الدافع والإحساس بكل ما هو صح، ويعمل على تطويره داعياً الإنسان لتقويم ذاته وحضوره وأفعاله، ومراقبة الردود عليها، وصولاً إلى الإيثار المتبادل، وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوان.

بعد كل هذا أصل لأقول: إنسانٌ بلا ضمير لا إنسان، ومجتمعٌ بلا ضمير لا عمل جيد وفرقةٌ مستمرة، إدارةٌ بلا ضمير المصير الفشل، أمةٌ بلا ضمير لا أمة.

د. نبيل طعمة

ويبقى السوريون أصحاب هذه الأرض الطاهرة وعشاقها

نعيش عليها ونقدس ترابها ونورث حبها الأبدي للأجيال

المهندس علي المبيض

لابد في البداية من أن نؤكد أن المقالات التي نقوم بنشرها أسبوعياً إنما نتوخى من خلالها أن نؤكد النقاط التالية:

– أهمية التاريخ السوري كأحد أهم روافع الفن والفكر والثقافة والاقتصاد والتنمية المجتمعية.

– الإشارة إلى المكتشفات المهمة التي أسهمت الحضارة السورية بتقديمها للبشرية وكان لها أثر واضح في تطور العلوم والفنون والثقافة في أرجاء العالم.

– تأكيد وحدة السكان والجغرافيا والحضارة والتراث الثقافي السوري منذ فجر التاريخ الذي سيصل بنا حتماً للوقوف على عظمة سورية وأصالة الإنسان السوري وتجذره بأرضه وسعيه الدائم للمساهمة في منظومة الحضارات الإنسانية بمفهومها الواسع والمطلق والتواصل الحضاري مع الآخرين بغية نشر علومه وفنونه وثقافته.

قد أثبتت الاكتشافات الأثرية نقطتين رئيسيتين:

النقطة الأولى: أن بلاد الشام هي من أقدم مناطق العالم المأهولة وإن الحضارات التي تعاقبت عليها اتصفت بأنها مترابطة على امتداد كامل جغرافيتها وهي متكاملة فيما بينها، وكل حضارة قامت فوق هذه الأرض الطاهرة قد استوعبت ثقافة وفنون وعلوم الحضارات التي سبقتها ولم تأت على إلغائها.

النقطة الثانية: أن هذه المنطقة تحمل بعداً اقتصادياً إقليمياً ودولياً واسعاً إذ إن موقعها الإستراتيجي بين القارات الثلاث يحقق لها وعلى الدوام أهمية عالميةً بالغةً وكانت هذه الأهمية تعطيها ومنذ القدم أوراقاً عديدةً ومتنوعةً تجعلها قوةً اقتصاديةً وعسكريةً مهمة وتوفر لها أسباب الازدهار الاقتصادي والمعرفي والحضاري عبر جميع المراحل والحقب التاريخية التي مرت بها.

والسوريون تكلموا لغةً واحدةً لكن بلهجات متعددة فقد أثبتت التحقيقات اللغوية للمحفوظات الأثرية المكتشفة أن السورية أو السريانية هي لغة جميع سكان المنطقة الممتدة من البحر الأسود إلى بحر العرب ومن وادي السند شرقاً إلى جزيرة قبرص واليونان وكريت غرباً، وأن ما أطلق عليها بالأكادية والبابلية والآشورية ليست إلا تسميات من المؤرخين المحدثين أنفسهم تبعاً لانتقال عاصمة الدولة من «أكاد» إلى «بابل» إلى «آشور».

إن سورية وبحكم موقعها الجغرافي المتميز والمهم هي بلاد مرور واحتكاك تجتازها وتتقاطع فيها الطرق الطبيعية التي تصل مناطق وبلدان شرق آسيا بالبحر الأبيض المتوسط وتربط الشمال مع الجنوب باتجاه الجزيرة العربية وإفريقيا، وقد قامت فيها سابقاً ممالك وامبراطوريات عظمية قدمت للعالم سلسلةً من الاكتشافات والاختراعات المهمة التي ساهمت بازدهار البشرية وتقدم العلوم والفنون في كل مناحي الحياة، ونعم بخيراتها العديد من الأمم التي استوطنتها منها على سبيل المثال لا الحصر السومريون والأكاديون والأموريون والبابليون والآراميون والحثيون والآشوريون والفرس واليونانيون والرومان والعرب.

ونحن عندما نستعرض الحضارات والممالك التي قامت فوق هذه الأرض الطاهرة ونبين أمجاد هذه الأمة فإننا نحاول من وراء ذلك أن نستنهض الهمم لكي نعيد للتاريخ المشرق سيرته وفي شتى المجالات الثقافية والعلمية والحرف التقليدية والزراعة وفنون العمارة التي مازالت آثارها شاهدةً عليها لغاية اليوم تدل على شموخ وعظمة هذه الأمة، وهي محاولة متواضعة لكي نؤكد من خلالها أن أبناء سورية اليوم هم أحفاد هؤلاء العظماء الذي أسهموا بشكل كبير في بناء الحضارة الإنسانية برمتها وكتابة أمجاد التاريخ السوري الحافل.

واليوم يجد السوريون في تاريخهم المجيد ينابيع مختلفة لثقافة ثرية متنوعة يمكن أن تشكل عاملاً موحداً وأرضيةً مشتركةً لبناء الحاضر واستشراف المستقبل وهي تساهم بشكل كبير في تقريب وجهات النظر وجعل التواصل في حضارتنا نهجاً ثقافياً يفيض على الكون ثقافةً وعلماً وفناً.

مملكة ماري

جوليا دومنا

أبناء سورية الأوائل هم من بنوا تدمر وأوغاريت وماري وإيبلا وأفاميا وعمريت ودورا أوروبوس والممالك الآرامية العديدة ومعلولا تلك المدينة الساحرة التي مازال قسم من أهلها يتكلمون لغة السيد المسيح المقدسة.

أبناء سورية الأوائل هم من بنوا القلاع والحصون ليصدوا هجمات الطامعين بنهب خيرات وثروات هذه الأرض الطاهرة.

أبناء سورية الأوائل هم أحفاد زنوبيا وجوليا دومنا.

أبناء سورية الأوائل هم أحفاد الإمبراطور الروماني فيليب العربي أحد أبرز الأباطرة السوريين الذين حكموا الإمبراطورية الرومانية التي كانت تحكم نصف العالم.

أبناء سورية الأوائل هم أحفاد المعماري الدمشقي أبولودور الذي قام بإنجاز العديد من الأوابد المعمارية المهمة في روما التي مازال بعض منها شاهداً على عظمة السوريين في العمارة والثقافة والفن.

سورية موئل الحضارات ومهد الديانات السماوية وأرضها هي الأغنى حضارياً وهي تعتبر متحفاً تاريخياً طبيعياً لحضارات تعاقبت على أرضها منذ أكثر من عشرة آلاف عام.

أول أبجدية في التاريخ

قدمت سورية أعظم إرث للعالم، وهي الأبجدية التي طورها الفينيقيون خلال الألفية الثانية قبل الميلاد، وتأثر بها بشكل كبير الآراميون والإغريق، وتعود معظم أو جميع النصوص الأبجدية المستخدمة في جميع أنحاء العالم القديم إلى تلك الأبجدية.

حيث قدم أبناء أوغاريت أول أبجدية في العالم، وهي تتلخص بجعل لكل صوت ساكن إشارة خاصة فيه يدعى الحرف، وتتكون أبجدية أوغاريت من ثلاثين حرفاً تكتب من اليسار إلى اليمين تم العثور عليها محفورة على ألواح طينية تجفف تحت أشعة الشمس أو تشوى في أفران مرتفعة الحرارة على رقيم فخاري طوله ٥,٥ سم وعرضه ١,٣ سم.

وتعتبر أبجدية أوغاريت بحق واحدةً من أعظم الاختراعات التي عرفتها البشرية، إذ إنه لا أحد ينكر أهمية اللغة في التعبير ونشر الثقافات والفنون وهي أقدم أبجدية في التاريخ، ولم يكن اختراع الأبجدية في أوغاريت من قبيل المصادفة بل كانت البيئة الثقافية والعلمية التي كانت سائدة في أوغاريت مهيأة لذلك تماماً، فقد كان يلتقي فيها الكثير من التجار من مختلف أنحاء العالم حاملين معهم علوماً وثقافات متنوعة، حيث استوعب أبناء مملكة أوغاريت بعقليتهم المنفتحة على الحضارات الأخرى هذه العلوم وأضافوا إليها من علومهم وثقافاتهم وخبراتهم المتراكمة التي هي نتاج الحضارات العديدة المتعاقبة التي مرت على هذه المنطقة.

أول نوتة موسيقية

في أوغاريت أيضاً عثر على أقدم نوتة موسيقية معروفة في العالم مدونة على رقيم من الطين، يعود تاريخه إلى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد، يحتوي على أربعة أبيات مكتوبة باللغة الحورية، وهذه النوتة هي السلم الموسيقي لنشيد موجه إلى الآلهة نيكال، حسب الاعتقاد السائد في تلك الفترة.

أقدم معاهدة سلام

في موقع إيبلا بالقرب من قرية سراقب عثر على أقدم معاهدة سلام جرت بين مملكة إيبلا ومدينة أرباسال الواقعة في منطقة الجزيرة السورية وكتبت هذه المعاهدة بالخط المسماري وباللغة الإبلائية.

أول رواية بالخيال العلمي

يعتقد أن أول رواية كتبت في إطار الخيال العلمي بعيداً عن الملاحم الشعرية القديمة تعود للمؤلف السوري لوقيانوس وهي رواية من القرن الثاني تتحدث عن مسافر قام بالانتقال عن طريق خرطوم الماء إلى القمر، حيث يصادف مجتمعات غريبة وأشكال حياة غريبة، ويتحدث أيضاً عن الحرب بين الكواكب واتصال سكان الأرض بالكواكب الأخرى.

أول قالب صب للسبائك البرونزية

عثر في منطقة ابن هاني التي تقع في مدينة اللاذقية على قالب حجري كان يستخدم لصب السبائك المعدنية وكانت السفن تنقل هذه السبائك في البحر الأبيض المتوسط، وتباع في الموانئ والمراكز التجارية المنتشرة على سواحل البلدان المطلة على البحر وكان هذا الحجر على شكل بلاطة حجرية ضخمة مثبتة في الأرض، حفر على سطحها شكل صنع السبيكة.

أول حفر لوجه إنسان

عثر في منطقة تل الجرف الأحمر بالقرب من حلب على أقدم حفر لوجه إنسان على حجر، يعود تاريخه إلى عام ٩٠٠٠ قبل الميلاد ينسب إلى العصر الحجري الحديث.

أقدم وعاء

تطورت الزراعة في مناطق الهلال الخصيب منذ نحو ١٠ آلاف عام قبل الميلاد وظهرت عدة أدوات بدائية وأوعية تستخدم في الأعمال الزراعية كانت تصنع من الحجر، حيث عثر على أقدم وعاء في منطقة تل الجرف الأحمر قرب حلب يعود تاريخ صنعه إلى نحو ٩٠٠٠ عام قبل الميلاد مصنوع من حجر أبعاده ١٢ سم X ٩ سم.

السفن الفينيقية

الفينيقيون كانوا سادة التجارة البحرية، فمن أوغاريت أبحرت السفن ناشرة الحضارة وحاملة معها العلوم والفنون إلى أرجاء العالم كافة.

ويعتبر الفينيقيون أول من برع في صناعة السفن التي كانت تستخدم في تنقلاتهم وتجارتهم، ويرجع تاريخ بناء تلك السفن تقريباً إلى عامي ١٢٠٠ إلى ٨٠٠ قبل الميلاد، وكانت تتميز بوجود رأس حصان على مقدمة السفينة، يقول المؤرخ اليوناني هيرودوت: إن الفينيقيين قاموا بأول رحلة بحرية حول إفريقيا في عام ٦٠٠ قبل الميلاد.

طحن القمح

من المعروف أن القمح هو من أهم المزروعات في العصور القديمة والحديثة، وكان يستخدم الإنسان منذ القدم أدوات عديدة لطحن القمح، حيث عثر في موقع أبو هريرة في الرقة على جرن مصنوع من حجر البازلت، وهذا الجرن كان يستعمل في طحن القمح ويقدر أن تاريخه يعود إلى عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد.

صناعة الزجاج

إن تاريخ صناعة الزجاج غير معروف على وجه التحديد، ويرى المؤرخ اليوناني القديم بليني أن الفينيقيين هم أول من صنع الزجاج الحقيقي ويعود تاريخه إلى نحو ٥٠٠٠ عام قبل الميلاد، لكن وفقاً للأدلة الأثرية فإن أول رجل صنع الزجاج كان في بلاد ما بين الرافدين ومصر قبل ٣٥٠٠ عام قبل الميلاد.

الشفرات والأدوات الحادة

في أوائل العصر البرونزي أي قبل نحو ٥٣٠٠ إلى ٣١٠٠ سنة كانت الشفرات والأدوات الحادة تصنع من حجر الصوان والزجاج البركاني الأسود، وبقيت تلك الأدوات مهمة لسكان تلك الحقبة على الرغم من ظهور الأدوات المعدنية.

عثر في تل موزان الواقع على الحدود التركية والعراقية على العديد من الأدوات المصنوعة من الزجاج البركاني، ويعتقد علماء الآثار أن منشأ تلك الأدوات الحادة التي كانت تستخدم في سورية منذ ما يقارب ٤٢٠٠ عام هو من البراكين التي تبعد نحو ٢٠٠ كيلو متر جنوب شرق تركيا.

وإننا حين نستعرض إنجازات السوريين الأوائل فإننا نحاول أن نستلهم من ذلك التحفيز على الإبداع في حاضرنا والذي يعطينا الثقة التي تمكننا من الانطلاق نحو المستقبل، فالأمة التي لا تعرف ماضيها لا ذاكرة لها ومن فقد ذاكرته يسر هائماً على وجهه متخبطاً في خطواته.

ونؤكد من خلال ذلك أن الإنسان السوري الذي ساهم منذ القدم في كتابة أمجاد هذا التاريخ المشرف، وشارك في بناء الحضارات المتعاقبة جدير بأحفاده اليوم إعادة بناء ما تهدم ورأب ما تصدع والمشاركة بفعالية في المنظومة الحضارية والمحافظة على مخرجات تلك الحضارات التي يحاول أعداؤنا بشتى الطرق والأساليب تدميرها أو تزويرها أو تشويهها... والتي تشهد على عظمة هذا التاريخ الحافل الذي يمتد لأكثر من مليون عام.

ونبقى نحن أصحاب هذه الأرض الطاهرة وعشاقها.

نعيش عليها ونقدس ترابها ونورث حبها الأبدي للأجيال..

جيلاً بعد جيل.

سورية الراسخة..

سورية الشامخة..

ستبقى عصية على الأزمات التي تعصف بها، كما تجاوزت طوال عمرها المديد كل الأزمات التي مرت بها.

معاون وزير الثقافة

تأملات مع زخارف الجامع الأموي في دمشق

منير كيال

إذا كان لنا أن نقف أمام صروح أسلافنا وما خلفّوه من أوابد ترفع الرأس وتنحني لها الهامة، إجلالاً وإكباراً.. فإن من الضرورة بمكان أن يكون للأيدي التي نهضت بهذه الأعمال، لتكون أمامنا وأمام الأجيال على مدى الدهور والعصور، مكانة من الإجلال والإكبار، لأن ما تركوه لنا من الأوابد والمآثر يحاكي التاريخ، ويدل دلالة واضحة على ما كانت عليه أيامهم من فكر نيّر وعقل مبدع وأيدٍ ماهرة.

وإذا كان لنا أن نقف على ما كان عليه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان، من همة وسخاء واهتمام بالعمران أكان في دمشق أم في منازل طريق الحج الشامي، بل حتى في المدينة المنورة والمسجد الحرام في مكة المكرمة. ولم يضنّ بذلك على الاطلاق، فقد أنفق الوليد على بناء الجامع الأموي الأموال الطائلة في وقت كانت فيه الدولة الأموية لا تغيب عنها الشمس، لاتساعها وكثرة خيراتها، وكانت مدينة دمشق بذلك الحين بعصرها الذهبي.

استغرق بناء الجامع الأموي نحو عشر سنوات وأنفق الوليد ما أنفق لإنجاز بناء هذا المسجد فحشد لذلك العدد الكثير من البنّائين المعماريين والمرخّمين والنحاتين، من شتى أنحاء الدولة الأموية آنذاك. فقال الناس:

إن الوليد يبدّد أموال بيت المال على البنائين والدهانين. فأجابهم بقوله: يا أهل دمشق.. تفخرون بأربع خصال، ماءكم وهواءكم وغوطتكم وحماماتكم. فأردت أن يكون مسجدكم هذا: هو الخامسة.

فكانت جدران حرم المسجد مكسوّة بالرخام إلى ارتفاع يقارب طول قامتي إنسان تلا ذلك كسوة هذه الجدران بالفسيفساء كما كانت أعمدة هذا الحرم من الرخام الموشّى بالذهب، وكذلك مقاعد هذه الأعمدة، والأمر كذلك بسقف حرم المسجد، إضافة إلى ترصيع المحراب بالجوهر وجعل نوافذ الحرم التي وصل عددها إلى (٧٥) نافذة من الزجاج المعشّق. كما فرش أرض صحن المسجد (باحته) بالرخام مع تشكيلات من الرخام حول البحرة التي تتوسط الصحن وأنحاء تلك التشكيلات من الرخام.

وهذا يجعلنا نقف أمام الأيدي الخلّاقة المبدعة التي أبدعت وقدمت لنا بناء هذا المسجد، على ما كان للخليفة الوليد من حماسة وعطاء لإنجاز هذا البناء ولعل أبدع ما كان بالمسجد من تفنن وروعة الأعمال التي نجم عنها ما يطلق عليه اسم التزيين بالفسيفساء.

وهذه الفسيفساء من مكعبات صغيرة زجاجية أو الحجر الملون، كانت تُكسا بها أرض وجدران المعابد والقصور اليونانية والرومانية والبيزنطية.

وقد عرف الصنّاع السوريون فن الفسيفساء وتعايشوا مع هذا الفن، فأقاموا له الأفران اللازمة.

وقد دلت الحفائر على العديد من الألواح التي كانت من الفسيفساء، ومن هذه الألواح ما هو محفوظة بالمتاحف. ويعود أغلبها إلى ما قبل العهد الأموي، وهذا دليل على مهارة الصناع السوريين بفن الفسيفساء وبراعتهم خلال عصور متعاقبة.

وقد أحب الأمويون فن الفسيفساء وكان لهم ولع به، فأدخلوها بتزيين دورهم وقصورهم وزينوا بها الجامع الأموي بدمشق بشكل لم يسبق له مثيل، حتى أصبحت أعمال الفسيفساء أحد روائع فنّهم بل تراثهم المعماري وقد أصبح يطلق على كل عمل فني متكامل اسم عمل فسيفساء ومهر أبناء بلاد الشام بأعمال هذه الفسيفساء وتوارثوها عن أجدادهم ولئن اشتهر اليونان والرومان والبيزنطيون بأعمال الفسيفساء فإن هذه الشهرة تعود لأبناء بلاد الشام يوم كانت هذه البلاد تحت حكمهم.

وامتازت هذه الأعمال في العهد الأموي بخصائص فريدة كان منها تشكيل مواضيع أعمال الفسيفساء على الجدران وأرض الباحات بما يعبّر عن الفن المبدع لمواضيع الفسيفساء بفن وذوق رفيع، فضلاً عن ذلك: فقد كانت المواضيع المتعلقة بهذا الفن مطبوعة بالطابع الإسلامي، وترتبط بالبيئة والمعتقد والحياة لكونها تشكل إنعكاساً جمالياً متكاملاً لما يشعر به الصانع المبدع من تكوين صادق للحياة.

ذلك إن العاملين بهذا الفن كانوا على درجة فائقة بمحاكاة الطبيعة وألوانها، بحيث إن اللوحة الواحدة من أعمال الفسيفساء كانت تضم ما يزيد على ثلاثين لوناً، منها على سبيل المثال ثلاث عشرة درجة للون الأخضر، وقد برعوا في تصوير الأنهار والبحار والقصور والدور، ورافق ذلك زخارف وكتابات على غاية من الجمال والدقّة وحسن الصنعة.

وكانت هذه الأعمال بالمسجد الأموي بدمشق تغطي جدران المسجد وأروقته حتى إن من الباحثين من اعتبرها: أعجوبة الدنيا وفتنة للناظرين.

كما زينت هذه الفسيفساء الجدار الجنوبي لحرم المسجد الأموي بآيات وسور من القرآن الكريم رصفت بفصوص مذهبة، كما زيّن ما فوق المحراب بمناظر لمكة المكرمة.